الإعجاز العلمي في القرآن الكريم بين دلالة المصطلح والبعد المعرفي

د. علي فريد دحروج

ملخص البحث

تحدث الباحث عن قضية الإعجاز العلمي في القرآن الكريم من حيث الربط بين اللفظ الدال على الاعجاز العلمي و مدلوله اللغوي وناقش الباحث هذه القضية داعيا الى عدم الإفراط والتفريط لأن المفسر كما المؤوّل مطالب بأن يوضح مراد الله في آياته ، وتلك غاية لا يدركها إلاّ من تبحر في علوم شتى ، وقليل ما هم . وعلى المفسرين التفريق بين الحقائق العلمية وبين النظريات والفرضيات العلمية: فالحق لا يضاد الحق، لذا فكل حقيقة علمية يشهد لها العلم بقوانينه الثابتة هي حقيقة دينية أكّد عليها القرآن الكريم . ومن شأن النظريات والفرضيات أن تتغير وتتبدل مما ينعكس سلباً على فهم وإدراك معاني آيات القرآن العلمية والبناء عليها. وختم الباحث بحثه بنتيجة (إن الإعجاز العلمي في حقيقته هو إعجاز بياني ، لأن ما يسمى الآن (الإعجاز العلمي) هو عند التأمل والتحليل هو لون من (الإعجاز البياني) للقرآن . فالإعجاز هنا يكمن في الصياغة القرآنية العجيبة للآيات والتي تناولت ما له صلة بالعلم والآفاق والأنفس.

The Scientific Miraculousness in the Holy Qur'an between Term Semantic meaning and Cognitive Dimension

Ali Farid Dahrouj

Abstract

The present paper tackles the issue of the scientific miraculousness in the Holy Qur'an that links between the semantic meaning of the term that indicates the miraculousness and the linguistic implication. The paper calls to avoid the excessive status in interpretation. It is to say that the interpreters have to distinguish between the scientific facts and the scientific hypotheses. The scientific fact is confirmed by the Holy Qur'an, while the hypotheses or theories are usually changed due to the discovering of new facts. The main finding in this research is that the scientific miraculousness is a declarative miraculousness by itself that tackles everything has connection with the science, prospects, and selves.

الإعجاز العلمي في القرآن الكريم

بين دلالة المصطلح والبعد المعرفي

أ.د. علي فريد دحروج

الجامعة اللبنانية – كلية الآداب والعلوم الإنسانية

قسم الفلسفة

وجامعة الإمام الأوزاعي – كلية الدراسات الإسلامية

- بيروت – لبنان

مقدمة

شكلت قضية « الإعجاز العلمي في القرآن الكريم» أحد أهم مداخل فهم القرآن على مر العصور، ذلك أن كتاب الله تعالى قد اشتمل على كل شيء وبين كل شيء كما ورد في آياته الشريفة بقوله تعالى ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام، ٣٨] و ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَٰؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾، [النحل، ٨٩]. وإذا كان القرآن الكريم معجزة خالدة الى يوم القيامة، بنظمه وأسلوبه وما احتوى عليه من مظاهر البيان والتراكيب اللغوية التي بهرت عيون فصحاء العرب وعلماء البلاغة، فكان التحدي على الإتيان بمثله او بعشر سور منه أو بسورة واحدة، ليبقى هذا التحدي شاهداً على أن القرآن الكريم كلام الله تعالى الذي لا يأتيه الباطل من بين يده ولا من خلفه . فهذا التحدي هو صورة المعجزة التي عرّفها العلماء بأنها: " الأمر الخارق للعادة الذي يدعي به من جرى على يديه أنه نبي من عند الله ويتحداهم بأن يأتوا بمثله " [١] . وبعبارة أوضح: «المعجزة هي كل أمر خارق للعادة، مقرو بالتحدي، وسالم عن المعارضة يظهره الله على يد رسله»[٢] . ومن دلالة المعجزة جاء مصطلح الإعجاز ليكشف عن جهود العلماء - قديماً وحديثاً - في فهم معاني آيات القرآن واستنباط ما يمن استنباطه من حقائق ومعارف وقواعد وأحكام ونظريات، كلٌ بحسب الوسيلة المستخدمة والهدف

(١) ابو زهرة، محمد، **المعجزة الكبرى القرآن**، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٤٣٠ هـ/ ٢٠١٠، ص ٧ .

(٢) أنظر السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن، **الإتقان في علوم القرآن**، المكتبة الثقافية، بيروت، ١٩٧٣، ج ٤، ص ٣ . وقريبا منه ما ذكره الزرقاني، محمد عبد العظيم، **مناهل العرفان في علوم القرآن**، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٥٤، ج ١، ص ٦٦ .

المنشود . فالمعجزة للمضمون والإعجاز للوظيفة . لذلك كثرت وجوه الإعجاز التي تحدث عنها العلماء، من الإعجاز البياني، الى التشريعي والتعبدي، الى النفسي، الى التربوي والإصلاحي، وصولاً - وليس آخراً - الى الإعجاز العلمي.

دلالة المصطلح :

إذا ما أردنا أن نعرف الإعجاز، فهو لغة إثبات العجز، وهو إسم للقصور عن فعل الشيء، وهو ضد القوة . وهنا لا بد أن نتكلم عن دلالة المصطلح لما له من أهمية كبيرة في تحديد المعنى ونقل الصورة مع ما يرافق ذلك من تغيرات حين نتنقل بين العلوم المتنوعة، فيكون للمصطلح أبلغ الدلالة في إيراد المعنى المرتبط بهذا العلم دون ذاك .

فاللغات مفاتيح الفكر، ووسيلة التواصل والتفاهم بين الناس، واللغة العربية من أكثر لغات البشر جمعاً لهذا المعنى من حيث السيرورة التاريخية والبنية الخاصة، حيث شكّلت الألفاظ والمفردات والأسماء فيها قوالب للفكر والفهم والإذتهان والعرفان على امتداد عشرات القرون . ثم كان للقرآن الكريم في لغته وأسلوبه ومفرداته ودلالاتها نقلة كبيرة في تطوّر الدلالة اللغوية العربية إذا ما قيست بما كان سائداً ومعروفاً في الشعر والأدب الجاهليين.

وما إن تأصّلت العلوم العربية والإسلامية حتى ظهرت الألفاظ بأبعادها المعرفية، فصرنا نقرأ للفظ الواحد عدة معان وتوظيفه في دلالات متنوعة، منها مثلاً: المعنى اللغوي، المعنى الإصطلاحي، المعنى الشرعي أو الديني، المعنى العرفي العام، المعنى العرفي الخاص، فضلاً عن تشابك العلوم الإسلامية وتداخلها مع بعضها، حتى بات الإنتقال من معنى إلى آخر، واستعمال اللفظ في المعنى المراد، يتطلب جهداً كبيراً، وأحيانا يعسر الفهم لدقّة المعنى وخفائه.

وكان للتطوّر الكبير الذي طرأ في مناهج الدراسات اللغوية والمصطلحية الحديثة، وضعاً وتعريباً وترجمةً، أثر كبير في انفلات المصطلحات وتشابكها، مما زاد في تعميق المشكلة الدلالية وغموض الحالة المعرفية . وصرنا نقرأ ألفاظاً ومصطلحات لا تمتّ إلى عالم الفكر والمعرفة بصلة، فضلاً عن عدم قابليتها للهضم والانصهار في العديد من العلوم الإسلامية، وهذا ما جعل الهوّة بين المصطلح ودلالته في صورته اللفظية وبين المعنى الذي يشير إليه، تتّسع وتتعمّق، لتصبح الإشكالية مشكلة بحدّ ذاتها .

وفي هذا البحث نسلّط الضوء على هذا الموضوع، بحسب الجهد والاستطاعة للوقوف على أبعاد المصطلح ودلالاته وتغيّر صورته البنيوية، إذ من المعروف أنّ لكل لفظ في اللغة العربية حقيقة وضعية، وحالات أخرى يخرج فيها عن حقيقته الأصلية إلى ما يعرف بالمجاز، أو المعنى الطارىء، شرعاً وعرفاً . فهل يصبح اللفظ بهذا الانتقال مصطلحاً جديداً، لا علاقة له بالمعنى اللغوي الأصلي ؟ أم يعبّر عن عدّة حقائق بحسب الوظيفة المعنوية التي يستعمل فيها اللفظ ؟ فيقال: حقيقة لغوية أصلية، وحقيقة مجازية معنوية، شرعية أو عرفية أو علمية أو تاريخية أو غير ذلك، بحسب الحقل المعرفي الذي نصوغ فيه الألفاظ والتراكيب والعبارات ؟ .

نقول هذا الكلام في معرض حديثنا عن الإعجاز العلمي كمصطلح والتفسير العلمي كمنهج واتجاه معرفي في فهم معاني آيات القرآن ومقاصدها . فدراسة الآيات القرآنية ذات الدلالة العلمية لا يعني أننا نقدم مادة علمية في علو ما من العلوم الطبيعية أو التقنية بالمعنى الدقيق للكلمة، وإنما هي دراسات تدخل في فضاء التفسير الموضوعي لإظهار أمرين اثنين:

الأول: إظهار عظمة الله تعالى في خلقه ومخلوقاته مهما تنوعت اشكالها وتعددت صورها . وهنا تتفاوت جهود العلماء بحسب المناهج المتبعة والموازين العلمية التي

يسقطونها في عملية الفهم والاستنباط .

الثاني: إظهار عظمة هذه اللغة – أعني اللغة العربية – التي نزل القرآن بها، من حيث التوسع في الدلالات والمعاني، فهي حاضرة في كل زمان ومكان لأن تشرح وتفسر كل الظواهر العلمية التي أشار اليها القرآن الكريم في معرض وصفه للكون والوجود والطبيعة وكوناتها، بعيداً عن الشطط والغلو المفرط أو التأويلات الفاسدة، بصرف النظر عما يسعى اليه هذا المفسر أو ذاك والغرض الذي يرمي اليه .

حقيقة القران:

فالقران كتاب هداية وتأمل ونظر وتدبر، لكي لا يكون للناس حجة في فهم مظاهر الكون والوجود، وربط هذا الفهم بعقيدة التوحيد . وبهذا المقصد المعرفي لا يمكن بأيّ حال من الأحوال أن نصنف القرآن بلون معرفيّ محدد، ولا أن نحشره في زاوية علمية معينة ليقال بأنه مصدر هذا العلم أو ذاك، فهو ليس كتاب رياضيات، ولا علوم حياة (بيولوجيا)، ولا هندسة، ولافيزياء، ولا كيمياء، ولا طب، بل ليس كتاباً في التاريخ والجغرافيا والفلسفة وعلم النفس وعلوم الإدارة، وغيرها من العلوم التي يتعاطاها الناس في حياتهم ويتخصصون فيها . لماذا يا ترى؟ لأن القرآن الكريم كتاب رب العالمين، وهذه العلوم بآلياتها ومناهجها وأصولها وقوانينها من صنع البشر بحسب الحاجة والوسيلة .

نعم، إنه كلام الله تعالى أنزله على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم لنتفكر فيه ونتدبر، ونستخلص منه دلائل التوحيد وعظمة الألوهية. وهو بهذا المعنى أو الاتجاه، يتوجب على كل دارس للقرآن تحت موضوع الإعجاز العلمي أن تكون الغاية هي الوصول إلى ثمرة الهداية التي دعانا إليها ربنا سبحانه وتعالى بقوله: { إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا }، [الإسراء،٩] وقوله:

{سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ}، [فصلت ،٥٣] .

ومهما قال العلماء وكتبوا في شرح وتفسير آيات القرآن فلن يبلغوا نهاية فهمه ولا الإحاطة بكل معانيه ومقاصده . وإلى هذا المعنى يشير سهل بن عبد الله التستري- رحمه الله – بقوله: « لو أعطي العبد بكل حرف من القرآن ألف فهم لم يبلغ نهاية ما أودعه الله في آية من آيات كتابه ،لأنه كلام الله، وكلامه صفته، وكما أنه ليس لله نهاية، فكذلك لا نهاية لفهم كلامه، وإنما يفهم كل بمقدار ما يفتح الله عليه « [١].

ألم يقل النبي صلى الله عليه وسلم في معرض وصفه للقرآن « ...وهو الذي لا تنقضي عجائبه « [٢] . لقد فسر علماؤنا المتقدمون كتاب الله تعالى من منطلق عصرهم وبيئتهم، وما زال العلماء يفسرون ويشرحون ويستنبطون منه، من عصر إلى عصر، ومن مكان إلى آخر، مسترشدين بتوفيق الله لهم، وبما آلت إليه علوم عصرهم، ولم يدّع واحد منهم أنه قد بلغ الغاية في عمله . فما كان مقبولاً بالأمس قد لا يكون صحيحاً اليوم، والحال نفسه ما يقدم اليوم فقد يأتي الغد والمستقبل ليغير كثيراً من المفاهيم والمعاني، فاحتكار

---

(١) دحروج، علي، و موسى، كامل، **كيف نفهم القرآن**، دار بيروت المحروسة، بيروت، ط ٣، ١٩٩٥، ص ٥ .

(٢) جزء من حديث رواه الإمام علي رضي الله عنه حيث قال: " أما اني قد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ألا إنها ستكون فتنة . فقلت: ما المخرج منها يا رسول الله ؟ قال: كتاب الله، فيه نبأ ما كان قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم، وهو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله، وهو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم . هو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا يشبع منه العلماء، ولا يخلق عن كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه . هو الذي لم تنته الجن إذ سمعته حتى قالوا: إن سمعنا قرآنا عجبا، يهدي الى الرشد، من قال به صدق، ومن عمل به أجر، ومن حكم به عدل، ومن دعا إلبه هدي الى صراط مستقيم " . أخرجه الترمذي في صحيحه . أنظر: إبن العربي المالكي، **عارضة الأحوذي لشرح صحيح الترمذي**، باب ما جاء في فضل القرآن، ج ١١، ص ٣٠-٣١، دار الكتاب العربي، بيروت، لا . ت . وقال الترمذي: هذا حديث لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وإسناده مجهول، وفي الحارث (أحد الرواة) مقال .

المعرفة أمر مرفوض، والتنطع في الدين وإيراد الآراء أيضاً أمر مرفوض علمياً ومنهجياً . لذلك كانت عبارة (والله أعلم) هي الفيصل الحكم الذي نستند إليه في الشرح والتفسير والاستنباط .

عظمة اللغة العربية:

نعود للمصطلح الذي نشأ حوله جدل كبير وأثار اختلافات فكرية بين العلماء قديماً وحديثاً، لنؤكد على أمر غاية في الأهمية، وهو أن لغة القرآن الكريم هي اللغة العربية التي بها نزل، وبها سيبقى خالداً على مرّ العصور، مهما تبدلت المناهج وتغيرت المعايير والموازين، وتنوعت المعارف والعلوم . فألفاظ الآيات هي هي، وعددها لن يزيد ولن ينقص، لكن المؤكد هو أن الإنسان بما استحصل عليه من علوم ومعارف ومناهج وقدرات ووسائل تقنية مكنته من الانتقال من حال إلى حال، وتطور مع الزمن بحيث أصبح قادراً على استيعاب كل جديد، وفهم ما حوله، كل ذلك بسبب طواعية هذه اللغة العظيمة التي تتسع لكل معنى جديد أو صورة جديدة شرط ألاّ يؤدي هذا الفهم إلى تأويلات فاسدة أو خروج عن مقصد الهداية الإلهية .

لذلك لم يكن من السّهل تحديد المصطلحات الإسلامية في القرآن الكريم، لأنّ أمرين في غاية الأهمية يتحكمان في هذا :

الأول: كيف يمكن اعتبار كلمة ما داخلة في حيّز الاصطلاح ؟

الثاني: مدى شيوع هذا الاصطلاح في حياة الناس العملية شيوعاً يستحقّ معه الدّراسة والتّسجيل .

إنّ قراءة المصطلحات الإسلامية تفرض نفسها عند اختيار المعنى، ذلك أنّ المجال الذي تتحرّك فيه الكلمة يتفاوت من حيث الشيوع أو الخصوص . فمثلا: ألفاظ العبادة والتوحيد والصلاة والزكاة والصيام والحج والجنّة والنّار والجهاد وغيرها أصبحت

شائعة بالمعنى الديني، بينما ألفاظ أخرى تثور حولها أسئلة هل هي من المصطلحات أم لا؟ مثال ذلك أسماء الله الحسنى، فيمكن أن تكون مصطلحات إسلامية إذا نظرنا إليها على أنّها من الأسماء الحسنى لله تعالى، ويمكن ألاّ تكون كذلك إذا سمّينا بها إنساناً ما . ولا يكفي في هذا المجال القول بأنّ هذه الألفاظ إذا وردت معرّفة بأل فإنّه يقصد بها الله عزّ وجلّ . أمّا إذا وردت نكرة فإنّها تكون صفة عادية لأيّ فرد من الناس [١].

نعم، لقد مارس أهل العربية فنونها منذ نشأت لغتهم حتى شبّت وترعرعت، وأصبحت في عنفوان شبابها عملاقاً معطاءً، واستظهروا شعرها ونثرها، وحكمها وأمثالها، وطاوعهم البيان في أساليب ساحرة، حقيقة ومجازاً، إيجازاً وإطناباً، حديثاً ومقالاً . وكلما ارتفعت اللغة وتسامت وقفت على أعتاب لغة القرآن الكريم في إعجازه اللغوي كسيرة صاغرة، تنحني أمام أسلوبه إجلالاً وخشية . وما عهد تاريخ العربية حقبة من أحقاب التاريخ، ازدهرت فيها العربية، إلاّ وتطامن أعلامها وأساتذتها أمام البيان القرآني إعترافاً بسموّه، وإدراكاً لأسراره [٢] . ولا عجب، « فتلك سنة الله في آياته التي يصنعها بيديه، ولا يزيدك العلم بها والوقوف على أسرارها إلاّ إذعاناً لعظمتها وثقة بالعجز عنها، ولا كذلك صناعات الخلق، فإن فضل العلم بها يمكّنك منها ويفتح لك الطريق إلى الزيادة عليها » [٣].

ولكي نفهم اللغة العربية – لغة القرآن – بصورة أكثر دقة ووعياً، ونعرف بالتالي عمق ما تكتنزه هذه اللغة من مفاهيم ودلالات، كان لا بدّ من ذكر العلاقة بين اللفظ والمعنى .

---

(١) السامرائي، إبراهيم، **في المصطلح الإسلامي**، دار الحداثة، بيروت، ط ١، ١٩٩٠ ص ١٢-١٣ .
(٢) القطان، مناع، **مباحث في علوم القرآن**، منشورات العصر الحديث، بيروت، ١٣٩١ هـ/ ١٩٧١، ص ٢٢٣ .
(٣) دراز، محمد عبد الله، **النبأ العظيم**، دار القلم، الكويت، لا.ت.، ص ٨١ .

العلاقة بين اللفظ والمعنى:

أثارت مسألة العلاقة بين اللفظ والمعنى وأيّهما أولى في الدّلالة تساؤلات عدّة بين الدّارسين والباحثين واللغويين، بين من يقول بأهمّية اللفظ وتقديمه على المعنى، وبين من يجعل الاعتبار أولاً للمعنى. فقد نقل عن عبّاد بن سليمان الصّيمري من معتزلة البصرة أنّ بين اللفظ ومدلوله مناسبة طبيعية، تقتضي اختصاص دلالة اللفظ على ذلك المعنى، وذلك لأنّ الدّلالة على شيء بالصّورة المعتبرة في طريق الإفادة، وهي الدّلالة المسمّاة بالوضعية دون شيء مع تساوي نسبته إليهما ممتنعة، وإلاّ لزم رجحان أحد المتساويين على الآخر من غير مرجّح [1].

والحديث عن العلاقة بين اللفظ والمعنى يستدعي الحديث عن الحقيقة والمجاز بالضرورة، فكما أنّ المعرفة تتأتّى بالوضع فهي تتأتّى أيضاً بالقرينة أو الإشارة . والإشارة التي عوّل عليها القائلون بالإصطلاح لا تستوعب كلّ السبل المؤدّية إلى معرفة المضامين اللغوية ،لأنّها إنّما تقتصر على المتحيّز، والحال في المتحيّز كالأجسام وما إليها ممّا يمكن الإشارة إليه دون سواها، واللغة تدلّ عليها وعلى المعاني التي لا تندرج تحت الإشارة الحسّية سواءً بسواء . ومن مقتضى ذلك ثبات اللفظ المشار به للشيء المشار إليه . وألفاظ اللغة ليس فيها هذا الثّبات لأنّها قائمة على الانتقال والتحوّل بين الأشياء تبعاً للمعاني التي يضفيها عليها الإنسان، والأشياء ليست متقدّمة على المعاني لأنّ الشّيئية بدورها جزء من المعنى، وهي ليست أشياء إلاّ من حيث هي موضوعات للنّشاط الإنساني الذي تتحوّل معه إلى مسمّيات تحتاج إلى أسماء[2] .

---

(١) عبد البديع، لطفي أ**فلسفة المجاز بين البلاغة العربية والفكر الحديث**، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، ط ١، ١٩٩٧، ص ٧٩.
(٢) المصدر السابق، ص ٧٨ .

لذلك كان تاريخ الحقيقة تاريخ فصل اللفظ عن المعنى، ثم تكلّف البحث في مطابقة الكلام للصّور العقلية والماهيّات التي عصفت بالموجود اللغوي وجرّدت الألفاظ من القدرة على إيجاد المعنى، بحيث اقتصر على ما بينها من علاقات النفي والإثبات . وهذا ما قرّره عبد القاهر الجرجاني، وإن كان قد صوّر الناس بإزائه في صورة من يعرف من جانب وينكر من جانب آخر، من أنّ الألفاظ المفردة التي هي أوضاع اللغة لم توضع لتعرف معانيها في أنفسها، ولكن لأن يضمّ بعضها إلى بعض، فيعرف فيما بينها من فوائد [1]. ودليله على ذلك أنّه إن زعمنا أنّ الألفاظ التي هي أوضاع اللغة إنّما وضعت ليعرف بها معانيها في أنفسها، لأدّى ذلك إلى ما لا يشكّ عاقل في استحالته وهو أن يكونوا قد وضعوا للأجناس الأسماء التي وضعوها لها لتعرفها بها، حتى كأنّهم لو لم يقولوا رجل وفرس ودار لما كان لنا علم بمعانيها، وحتى لو لم يقولوا فعل ويفعل لما كنّا عرفنا الخبر في نفسه ومن أصله، وحتى لو لم يضعوا الحروف لكنّا نجهل معانيها، فلا نعقل نفياً ولا نهياً ولا استفهاماً ولا استثناءً ،كيف والمواضعة لا تكون إلاّ على معلوم، فمحال أن يوضع إسم أو غير إسم لغير معلوم، ولأنّ المواضعة كالإشارة، فكما أنك إذا قلت خذ ذاك لم تكن الإشارة لتعرّف السّامع المشار في نفسه، ولكن ليعلم أنّه المقصود من بين الأشياء التي تراها و تبصرها، كذلك حكم اللفظ ما وضع له [2].

يقول رفيق العجم: إنّ العربية بمفرداتها والأسماء عبّرت عن جملة معطيات ومعان، فقد كانت أداة للتّعبير عن العرفان في كلّ معطاه الوجداني والعاطفي واللاواعي، بمثل ما كانت أداة فهم للإحساس الفطري في حياة الناطقين بها . ومن ثمّ انتقلت لتشكّل إشارات

(١) الجرجاني، عبد القاهر، **دلائل الإعجاز**، مطبعة المنار، القاهرة، لا. ت .، ص ٤١٥ .

(٢) التهانوي، محمد علي، **موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم**، تح. علي دحروج، تقديم رفيق العجم، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، ط ١، ١٩٩٦، مج ١، ص X من التقديم .

وحروفاً للفكر والتّجريد، فاستعدّت لاستقبال معاني الغير. وهنا في خضمّ إعمال العقل والفهم وتلقّي المجرّدات من الخارج انسكبت كلّ تلك المعاني في قوالب اللغة بعد تلقّيها في الأذهان وانطباعها بها، وبالتالي تمّ اتّسامها - تصوّرات الغير- بطبع العربية وبنيتها، هذه العربية في مبناها لا تنفكّ عن ذهنيّة صانعيها وناطقيها. وهكذا تنجدل الأمور برباط معقّد متفاعل بين ما في الأذهان وما في اللّسان، إنطلاقاً ممّا في الأصوات والأعيان [١]. ويتابع قائلاً: ولا ضير إن مررنا لماماً على بعض هذه التّوضيحات والتّعريفات لتبيان علاقة المفاهيم والمعاني باللّسان، وكيفيّة بناء الصياغة اللفظيّة والحكم على حقيقة من الحقائق أو تصوّر اصطلاح من المصطلحات فيما يخصّ الإنسان، أنّى كان زمانه أو مكانه، ولا سيّما أنّ لغة العلوم تعود للإنسانية جمعاء في سيرورتها والإبداع، ومن ثمّ تنسكب في هذه اللغة أو تلك .

حتى أنّ الإسميين بدءاً بالرّواقية وانتقالاً إلى أهل البيان المسلمين، وخاصّة إبن تيميّة، وصولاً إلى الأوروبيين المعاصرين، جعلوا الحقيقة العلمية ومحصّلة التجارب والتصوّرات تقوم في الأسماء وتعرف من خلالها وبالالفاظ، وأنّ الحقيقة المتجسّدة قائمة في الألفاظ، فلا عجب أن ينكبّوا على بيان العلاقات المنطقيّة القائمة في قضايا اللغة وعلاقات المفردات والكلام [٢].

ولعلّ علم الدّلالة أو حقل المعنى من أدقّ العلوم، إذ هو يبحث في العلاقة بين المبنى والمعنى . بينما ذهبت اللغويات الحديثة لدراسة العلاقة في داخل المبنى للّغة، علماً أنّ دراسة المبنى بما هو مبنى يساعد في فهم عمليات الصياغة وبناء العربية وبنيتها الشّكلية. ولقد أدرك العرب والمسلمون أهميّة هذه المباحث فاحتفلوا بعلمي أصول الفقه والمنطق

(١) المصدر نفسه، مج ١، ص XI من التقديم .
(٢) المصدر نفسه، مج ١، ص IIX من التقديم .

احتفالاً ظاهراً . وذهب بعضهم إلى اعتبار تمايز العلوم في نفسها إنّما هو بتمايز الموضوعات، فصدّروا العلم بما عرف عندهم بالمبادىء والمقدّمات، فكانت معرفة العلم بمعرفة حدّه تمييزاً للمفهوم، وبمعرفة الموضوع تمييزاً للذات .

واللاّفت للنّظر أنّ للفظ الواحد والمصطلح الواحد أحياناً عدّة مفاهيم وكثرة من المعاني، حتى تكاد اللفظة الواحدة تضجّ في تشعّب دلالاتها [1] . هذا من جهة، ومن جهة ثانية فإنّ الإتجاه اللغوي قد شدّد على أنّ اللّغة العاديّة هي الصّحيحة ومعاييرها تساعد بصورها وإشاراتها على تحقيق الوظيفتين المعرفية والانفعالية للّغة فقط .

إنّ التفريق بين المعنى الدلالي والإشاري يتمّ من خلال التجربة والعلاقة المنطقية الخاصّة باللّغة . إنّ هذه الواقعية التي اتّسم بها هذا التوجّه تساعد في منهجها والنتائج على فهم عمليات وضع المصطلح في اللغة العربية، وتؤازر على إدراك ذاك التحوّل بين الدّلالة العاديّة للّفظ ودلالته الاصطلاحية، وكيف استخدم العرب والمسلمون اللّغة العاديّة والمعايير البنائيّة للسانهم في صياغة التصوّرات العلميّة، بمثل ما يؤيّد ذلك التعرّف على موقع الاصطلاح والمصطلحات في إطار أيّ وظيفة للّغة .

والمتبحّر في فضاء العربية يجد بوضوح كيف استفاد المجتهد والفقيه والعالم والعارف من اللّغة العاديّة ومن الأسماء العربية . بيد أنّ الأقدمين تنبّهوا إلى مثل هذه العمليّة داخل اللّغة واستخرجوا منها تلك التفعيلات والأوزان الضّابطة، التي اعتبرها إبن جنّي في خصائصه أنّها قوالب لصياغة التصوّرات، ودالاّت لتمييز الافكار والمعاني، ممّا جعل إبن رشد الفيلسوف يقول بصحّتها على أن لا تخلّ بعادة لسان العرب، جاعلاً من العادة الضّابط التّقعيدي، منعاً من التفلّت . ولعلّ هذا الضّابط هو ذاك الجسر بين اللّغة العاديّة

---

(١) المصدر السابق، مج ١، ص IIIX من التقديم .

واللّغة الاصطلاحية.

وربّ سائل يقول: ما علاقة كلّ هذا بالمصطلح كلفظ وتصوّر، كاسم ومعنى ؟

والجواب أنّ هذا الحجاج يمدّنا بمعطيات معرفيّة وتوجّهات فلسفية تجعلنا ندرك فعل المصطلح وأثره في تحريك المعاني في الذهن ودور اللغة في كلّ ذلك وأثرها . فالمصطلح، على الرغم من كونه في معظم الأحيان، يأتي مفرداً ولفظاًواحداً من غير سياق في الجملة، إلاّ أنّه كإسم اتفق على أنّ له دلالات متعدّدة ومعانٍ منتشرة يضع أسبقية اللفظ على المعنى من وجهة نظر المنتصرين لفعل اللغة، ويحرّك في الذّهن المعاني الوافدة والمحصّلة في إطار بنية وسلطة اللغة [1] .

ما قدمناه من كلام حول المصطلح والعلاقة بين اللفظ والمعنى، كان الهدف منه الوقوف على قضية مهمة في فهم آيات القرآن بحسب الوسائل والمناهج والاتجاهات المتبعة لئلا يقع خلط بين مصطلح الإعجاز العلمي والتفسير العلمي. وقد ظهر هذا الخلط في دراسات عديدة إما بسبب قصور في المعارف العلمية وإما بسبب تأويلات بعيدة حمّلوا فيها آيات القرآن ما لا يمكن أن تحتمله من المعاني والإستنتاجات . فقديماً نظر العلماء في تفسير الإمام الرازي - مع جلالة قدره ومكانته العلمية وباعه الطويل - فكان حكمهم على تفسيره أنه فيه كل شيء إلا التفسير[2]، وذلك بسبب الاسترسال الكثيف في شرح الآيات الكونية بالمنهج العقلي والفلسفي . وكذلك الحال في تفسير الشيخ طنطاوي جوهري (الجواهر في القرآن)، حيث حوّل بعض أجزائه الى كتب في علم النبات أو الفلك أو الحشرات وعالم البحار والماء، عندما راح يفسر السور التي ورد فيها إشارات علمية إلى هذه الموضوعات .

(١) المصدر السابق، مج ١، ص XVIII – XIX من التقديم .

(٢) أنظر: الأندلسي، أبو حيان، **البحر المحيط**، مطبعة السعادة، القاهرة، ط ١، ١٣٢٨ هـ، ج ١، ص ٢٤١ .

نعم، نحن مع القرآن الكريم، ففي كل حرف منه معجزة وآية تدل على مصدره الإلهي. والخوف كل الخوف أن نسترسل في الإغراق والبحث عن كل مظاهر العلوم الحديثة والاكتشافات التقنية بالمعنى الواسع للكلمة، ثم نذهب إلى آيات القرآن نستنطقها لنؤيد بها هذه الاكتشافات والاختراعات تحت مظلة « الإعجاز العلمي »، وكأننا بهذا نقوم بعملية إسقاط الآيات على الواقع العلمي بدل أن نسقط الواقع العلمي على الآيات، لنقف على حدود المعاني التي تحتملها ألفاظ الآيات . ولذلك كانت قضية الإعجاز العلمي مثار جدل عنيف بين مؤيد ومعارض، قديماً وحديثاً، وألّفوا في ذلك كتباً ورسائل ومجلدات، وكانت بينهم ردود وتعاليق[1]. فالقرآن الكريم ليس كتاباً علمياً بالمعنى التقني للكلمة، وليس فيه نظريات علمية بالمعنى المصطلح عليه اليوم، وإن أورد الكثير من الإشارات واللفتات إلى بعض الأصول والمبادىء العامة الثابتة في طبائع الأشياء، ومظاهر الكون، وخصائص الإنسان، والمتعلقة بالماضي، والحاضر، والمستقبل، باعتباره كلام الله الخالق الصانع المبدع والخبير بالماضي أزلاً وبالحاضر والمستقبل أبداً .

فالمبادىء والأصول المتصلة بالشريعة والعقيدة صالحة وصادقة وناجحة وقابلة للتطبيق في كل زمان ومكان لأنها عامة وشاملة .

والإشارات واللفتات عن الطبيعة (الإنسانية أو الكونية أو العلمية ...) هي أيضاً صالحة وصادقة تتأكد مع الزمن وتطور العقل البشري . ولكن بدون تفصيل أو ترتيب أو تعقيب، وبدون فلسفات نظرية حتى لا يكون فيها تناقض ولا تعارض، وإنما التناقض

(١) للتوسع أكثر في هذه المسألة، يمكن النظر في: القرضاوي، يوسف، **كيف نتعامل مع القرآن الكريم**، دار الشروق، القاهرة، ط ١، ١٤٢١ هـ.، ص ٣٦٩ – ٣٧٨ . و كذلك: المحتسب، عبد المجيد عبد السلام، إتجاهات التفسير في العصر الراهن، مكتبة النهضة الإسلامية، عمان، ط ٢، ١٤٠٢ هـ./ ١٩٨٢، ص ٢٤٥ -٣١٣ .

والتعارض إن وقع فهو في كلام البشر وقوانينهم [١].

ولذلك تحدى الله تعالى الإنس والجن أن يأتوا بمثل القرآن في أسلوبه وبلاغته وبيانه، وهذا القدر متفق عليه عند العلماء . يقول الإمام بدر الدين الزركشي: « إعلم أن الله تحداهم أولاً في الإتيان بمثله فقال: ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ وَالجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء، ٨٨]. ثم تحداهم بعشر سور منه وقطع عذرهم بقوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [هود، ١٣]، وإنما قال: (مفتريات) من أجل أنهم قالوا: لا علم لنا بما فيه من الأخبار الخالية والقصص البالغة، فقيل لهم (مفتريات) إزاحة لعللهم وقطعا لأعذارهم، فعجزوا، فردّهم من العشر إلى سورة واحدة من مثله مبالغة في التعجيز لهم، فقال: { وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ } [البقرة، ٢٣]، أي يشهدون لكم أنها في نظمه وبلاغته وجزالته، فعجزوا [٢]» .

وإذا أدركنا هدف القرآن ومنهجه في الخطاب أدركنا أن ورود الآيات الكونية سواء ما يتعلق منها بالآفاق وما يتعلق بالأنفس البشرية شيء بدهي أيضاً، لأن من فئات الناس المكلفين المخاطبين بالقرآن الكريم من ينصبّ جلّ اهتمامه على هذه الجوانب من مخلوقات الله عزّ وجلّ، ولا بدّ من إقامة الحجة عليهم وإظهار أن القرآن الكريم هو كلام الله المنزل على النبي محمد صلى الله عليه وسلم ، ومن العسير أن تتذوق هذه الطوائف الجمال البياني وتدرك فصاحته وبلاغته لتعترف بالتالي أنه كلام الله المعجز . ولكنهم يدركون أن هذه

(١) اللحام، بديع السيد، " **حقيقة الإعجاز في القرآن الكريم**»، بحث منشور في **مجلة كلية الدعوة الإسلامية**، العدد الثاني عشر، ١٩٩٥، ص ١٩٣ - ١٩٤ .

(٢) الزركشي، بدرالدين محمد بن عبد الله، **البرهان في علوم القرآن**، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعرفة، لبيروت، ط ٢، ١٩٧٢، ج ٢، ص ٢٣٩ .

المعارف الإنسانية وهذه الحقائق الكونية لا يتصور أن يدركها بشر من ذاته، لأن كثيراً منها لم يكتشف إلا في عصور متأخرة جداً بعد التقدم العلمي وبعد اختراعات آلات دقيقة لم يكن للسابقين عهد بها .

إن ورود هذه الحقائق الضخمة والدقيقة في الوقت نفسه على لسان رجل لم يكن له إلمام بمثل هذه العلوم دليل على أنه تلقاها ممن يعلم السّرّ في السماوات والأرض: { قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا } [الفرقان، ٦][1] .

إن المتتبع لآيات القرآن الكريم يجد أن مئات الآيات قد تحدثت عن سنن الله تعالى في هذا الكون ونظامه وألوان العناية الربانية بمخلوقاته فيه [2] .

وهنا لا بد من السؤال، بعدما عرفنا هدف القرآن وغايته من الهداية الربانية، فنسأل: كيف نتعامل إذاً مع قضايا العلم التجريبي والاكتشافات التقنية وكل ما تردفنا به العلوم المعاصرة ؟.

للجواب على هذا السؤال يحسن بنا أن نذكر ما قاله الاديب الكبير عباس محمود العقاد توضيحاً للفكرة ورفعاً للّبس، قال: « نحن لا نحب أن نقحم الكتاب في تفسير المذاهب العلمية والنظريات الطبيعية كلما ظهر منها مذهب قابل للمناقشة والتعديل، أو ظهرت منها نظرية يقول بها أناس ويرفضها آخرون . ومهما يكن من ثبوت النظريات المنسوبة إلى العلم فهو ثبوت إلى حين، لا يلبث أن يتطرق إليه الشك، ويتحيفه التعديل والتصحيح، وقريباً رأينا من فضلائنا من يفسر السموات السبع بالسيارات السبع في المنظومة الشمسية، ثم يبيّن أن السيارات أكثر من عشر، وأن الصغار منها تعدّ بالمئات،

---

(١) مسلم، مصطفى، **مباحث في إعجاز القرآن**، دار القلم، دمشق، ط ١، ١٤٢٠ هـ/ ١٩٩٩، ص ١٥٧- ١٥٨ .

(٢) - يقدر بعض العلماء عدد الآيات الكونية في القرآن الكريم بما يقرب من ألف آية .

ولا يحصرها الإحصاء ! فليس من الصواب إذن أن نقحم العقيدة في تفسير أقوال وآراء ليست من الأصول في علومها، ولا يصح أن تتوقف عليها الأصول، وحسب الدين من سلامة المعتقد وموافقته للعقل: أنه لا يحول بين صاحبه وبين البحث العلمي، وقبول الرأي الذي تأتي به فتوح الكشف والاستنباط . وعلى هذه السّنة يرجع المسلم إلى آيات كتابه وأحاديث نبيّه، فلا يرى فيها مانعاً يمنعه أن يدرس التطور ويسترسل في مباحثه العلمية إلى حيث يلهمه الفكر وتقوده التجربة (١).

شروط وضوابط:

ولكي نوازن بين الإعجاز العلمي والتفسير العلمي للآيات الكونية في القرآن الكريم، ينبغي لنا أن نؤكد على مسلّمات بدهية يفرضها منهج الدراسة والبحث، بعيداً عن الإفراط والتفريط، وحفاظاً على مقاصد القرآن الكريم العلمية في الدعوة إلى الله وإقامة منهج النوحيد والإيمان في الأرض، ليؤدي الإنسان دوره ووظيفته في عملية الاستخلاف . ومن ذلك:

١ . القرآن كتاب هداية: حيث سلك بالإنسان مسالك العقل والفطرة ليحمله على النظر والتدبر والتأمل بما يحيط به في هذا الكون الفسيح . وهذا هو الهدف الرئيس للقرآن الكريم، لذا ينبغي أن تبقى الدراسات القرآنية المتعلقة بالآيات الكونية والعلمية ضمن هذا الهدف .

٢ . عدم الإفراط والتفريط: لأن المفسر كما المؤوّل مطالب بأن يوضح مراد الله في آياته، وتلك غاية لا يدركها إلاّ من تبحر في علوم شتى، وقليل ما هم .

---

(١) العقاد، عباس محمود، **حقائق الإسلام وأباطيل خصومه**، ص ١٠٠- ١٠١ .

٣. التفريق بين الحقائق العلمية وبين النظريات والفرضبات العلمية: فالحق لا يضاد الحق، لذا فكل حقيقة علمية يشهد لها العلم بقوانينه الثابتة هي حقيقة دينية أكّد عليها القرآن الكريم . ومن شأن النظريات والفرضيات أن تتغير وتتبدل مما ينعكس سلباً على فهم وإدراك معاني آيات القرآن العلمية والبناء عليها .

٤. عدم التكلف في فهم النص: أي التنبه لدلالة الألفاظ الحقيقية والمجازية وكيفية استعمال هذه الدلالة بحسب فهم العرب لها، لئلا نخلط بين المفاهيم المتحركة غير الثابتة ومن ثم ربطها بحقائق علمية قد تعجز الألفاظ عن بيان تصورها، وهذه إشكالية كبيرة في عملية الفهم .

٥. مع ثبات لغة القرآن وعدم تبدلها من عصر إلى عصر، ثم النظر إلى الحقائق العلمية التي أكدتها مناهج العلوم، مقارنة مع ما ورد شبيه لها في حقائق القرآن، لأنه يستحيل أن يقع تصادم بين حقائق القرآن وحقائق العلم [1].

(١) للتوسع أكثر، ينظر: مسلم، مصطفى، **مباحث في إعجاز القرآن**، ص ١٦٠ – ١٦٤ . وكذلك محمد علي، محمد سامي، **الإعجاز العلمي في القرآن الكريم**، دار النور، دمشق، ط ١، ١٤١٦ هـ/ ١٩٩٥، ص ٢١-٢٥ . وأيضاً القرضاوي، يوسف، **كيف نتعامل مع القرآن العظيم**، ص ٣٧٩-٣٨٥ .

خاتمة البحث

بعد طول تأمل ونظر في العديد من الدراسات والمؤلفات التي تناولت موضوع الإعجاز العلمي، ورغم أهميته الكبيرة في فهم القرآن من ناحية، وفي استخدام هذا المنهج في الدعوة إلى الله والإيمان به وتوحيده من ناحية ثانية، يتبين لنا – نقلاً عما ذكره الشيخ يوسف القرضاوي – ما يلي:

١ . الإعجاز العلمي في حقيقته هو إعجاز بياني، لأن ما يسمى الآن (الإعجاز العلمي) هو عند التأمل والتحليل هو لون من (الإعجاز البياني) للقرآن . فالإعجاز هنا يكمن في الصياغة القرآنية العجيبة للآيات والتي تناولت ما له صلة بالعلم والآفاق والأنفس . ذلك أن العبارة القرآنية أو الجملة القرآنية، قد جعل الله فيها من المرونة والسعة بحيث يفهمها العقل العربي العادي في عصر نزول القرآن، ويجد فيها المسلم ما يشبع فكره ووجدانه معاً، بالفهم الفطري لمن يقرأ القرآن . ومع ذلك فقد أودع الله الجملة القرآنية من السعة والخصوبة ما يتسع لما يكشف عنه الزمن من حقائق، وما يبلغه العلم من تطور وتقدم، كما نشاهد في عصرنا [١].

٢ . تكوين العقلية العلمية في القرآن: وأحب أن أشير هنا إلى قضية أراها في غاية الأهمية، لم تأخذ حقها من اهتمام الباحثين في الدراسات القرآنية، وهي أن ما جاء به القرآن من (تكوين القلية العلمية) ترفض الظن والخرص، واتباع الأهواء والعواطف والتقليد الأعمى، كما تنظر في ملكوت السماء والأرض وما خلق الله من شيء، وتتعبد لله تعالى بالتفكر في الآفاق والأنفس، مثنى وفرادى، وتعتمد البرهان في العقليات، والتوثيق في

(١) القرضاوي، يوسف، **كيف نتعامل مع القرآن العظيم**، ص ٣٩٧ .

النقليات، والمشاهدة في الحسيات [1] .

وهنا تقفز إلى الذهن الأسئلة التالية: ترى، عند نزول القرآن الكريم عند العرب آنذاك هل كان هدفه إظهار حقائق العلم المكتشفة اليوم ؟ وهل يمكن القول بأن القرآن تحدى الإنس والجن على أن يأتوا بمثله بما أشار إليه من العلوم التجريبية ؟ وهل كان باستطاعة البدوي الذي لا يعرف إلاّ الصحراء وناقته أن يكتشف نواميس الكون العلمية ؟ ثم كيف نفسر ذهول فصحاء العرب وصناديد البلاغة عندما سمعوا آيات القرآن حتى حكموا عليه بأن أعلاه لمثمر، وأن أسفله لمغدق، وأنه يعلو وما يعلى عليه، وما هو بقول بشر ؟ .

وصدق الله العظيم إذ يقول: { هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ }، [الجمعة، ٢]. وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين.

---

(١) المرجع السابق، ص ٤٠١ .